هل معركة لبنان غير معركة فلسطين !؟

إذا كان صحيحا ما يدعيه بعض المدعين في لبنان من أن المعركة التي تفجرت داخله هي في حقيقتها معركة بين حلف إيراني سوري من ناحية والولايات المتحدة من ناحية أخرى فإن لنا على هذا القول تعليقين اثنين : الأول . شكلي . إذ كان ينبغي للذين صاغوا هذه الصيغة أن يضيفوا مع الولايات المتحدة (إسرائيل) حتما لأن الولايات المتحدة وإسرائيل مقترنتان ومتلازمتان بأكثر من اقتران سوريا مع إيران .

أما التعليق الثاني . فموضوعي . ونريد أن نقول من خلاله : إننا . نحن الفلسطينين والعرب والمسلمين . مع تحفظنا على الصيغة كلها فإننا لا نفهم أبدا كيف تطرح علينا فابريكة الحرب النفسية الأجنبية هذا الإفك وكيف تخيرنا بين خيارين : أن ننضم قلبا وقالبا مع إيران وسوريا أو مع أمريكا وإسرائيل !؟

فعلى الرغم من أننا . نحن العرب . غاضبون من السياسة الإيرانية في العراق ، ونتفهم ما يقوله متأخرا التيار الصدري عن تلك السياسة هناك .. وعلى الرغم من المأساة الجديدة التي حلت بكل فلسطيني بعدما أصاب إخواننا الفلسطينيين في العراق من تقتيل وتعذيب وتشريد في الحرب الطائفية القذرة في العراق ، فإن غضبنا من سياسة إيران في العراق لا ينسينا أن من مصلحة الجميع في المنطقة أن تملك إيران وغير إيران أسرار التكنولوجيا النووية بل وأن تملك القنابل الذرية أيضا . فليس مما يضمن السلام أن يظل الامتياز النووي في المنطقة العربية والإسلامية حكرا على إسرائيل الدخيلة التي كانت

سوابق العدوان أساس وجودها وما زالت الحروب الدائمة في عرف قادتها هي ضمان تماسكها وبقائها ، ناهيك عن الترسانة النووية الكبرى بيد أمريكا الدولة الوحيدة في تاريخ البشر التي استخدمت القنابل الذرية استخداما فعليا ضد المدنيين . فلماذا تلام إيران على مجرد (احتمال) توصلها إلى القنبلة الذرية ويباح لإسرائيل أن تملك بالفعل مخازن مليئة بأسلحة الدمار الشامل من كل نوع ؟

إن مصلحتنا في هذه المنطقة التي هي منطقتنا أن نكون نحن العرب والمسلمين أول من يملك أسلحة الردع .. لا لاستخدامها ولكن لكي لا يظلمنا الذين ينفردون بحيازتها ويستولون استيلاء فاحشا على مواردنا ويجوسون خلال مياهنا ويلوحون باستخدام تفوقهم ضدنا . وما هياج إسرائيل وأمريكا والغرب عامة ضد إيران إلا خوفا من إضعاف قدرتهم على فرض إرادتهم الظالمة على إيران وخوفا من شل قدرتهم على نهب نفطها وبالتالي تحسبا من انتقال العدوى إلى البلدان النفطية الأخرى . فلا أحد في الحقيقة يصدق أن إيران أو غيرها سوف تستخدم السلاح النووي لو ملكته . ولا أحد يصدق أصلا هذا التصوير الكاذب الذي يجعل إيران والولايات المتحدة في حجم واحد دوليا . أما تهويل المحافظين الجدد وغيرهم من المتصهينين الدوليين بالقول إن حكام إيران متطرفون ولا يفكرون بالعقل ولا يتورعون عن شيء فهذا كذب وافتراء لأن الحقيقة أن لديهم من الحكمة والوعي والتقدير مثل ما لغيرهم ، وهم يعرفون حجمهم دون شك . وأمريكا وإسرائيل تحترفان الحصار وتطويق أبعد الاحتمالات بطرا وعجرفة وعدوانية .

والسياسة الوحيدة الجديرة بالعرب وغيرهم من الشعوب هي سياسة تعدد الأقطاب وتعميم الذرة في المنطقة على الجميع مع تعميم الرفض والمواجهة والمقاومة .

لو كان الحكم الإيراني أوسع أفقا لما سمح لأحلامه الطائفية في العراق أن تطغى على مقتضيات هذا الموقف الواحد الذي يجب العمل من أجله مع شعوب المنطقة . فحين يراهن الإيرانيون على شعوبيين مأجورين يريدون كسب نقاط لمصلحة الطائفة أو الانتقام من شبح صدام حسين أو شبح أبو هريرة فذلك نقيض ما يتطلبه شعار إيران بالخلاص من سيطرة الشيطان الأكبر . ونقول هذا ونحن نعض على جراحنا من اضطهاد الفلسطينيين في العراق بواسطة جماعة الحكيم وجماعة الصدر أيضا . وكلهم يتلقون رعاية إيرانية .

ونعود إلى موضوعنا فنقول : مهما يكن الخلاف بيننا وبين إيران فإن المعادلة التي تحكم علاقتنا بها مختلفة جوهريا عن علاقتنا بإسرائيل وأمريكا فالأولى تتمثل في أننا أصحاب منطقة واحدة وعقيدة واحدة ومصلحة واحدة وبيننا وبينها مصالح استراتيجية مشتركة ، وإن كان بيننا وبينها نقاط خلاف لا يمكن إنكارها ولا يستهان بها . ولكن المقارنة بينها وبين أمريكا وإسرائيل مستحيلة : فما الذي يجمع بيننا وبين أمريكا وإسرائيل ؟ ومن هم الذين اغتصبوا وطننا وشردونا وأمطرونا بالعدوان جيلا بعد جيل ؟ وهل ثمة ما يمكن أن نتفاهم معهما حوله ؟

إن تخويف لبنان بإيران وسوريا هو عبارة عن عملية إحلال وإبدال دعائي اقتحامي وقح .. فهل سوريا ولبنان إلا بلد واحد ؟ وهل يمكن تشكيل موقف

سياسي صادق ومتوازن مع إنكار الروابط القومية وأحكام الجغرافيا السياسية يا أهل الأكثرية النيابية ؟

ولما كنا نحن الفلسطينيين هنا ترمومتر المنطقة وجبهتها الأمامية فإن هذه الدعايات كانت قد وصلتنا باكرا . وما زلت أذكر أن أبواق دحلان وأمنه الوقائي بغزة رددوا في المجالس منذ أكثر من عامين إن الصراع هنا في فلسطين هو صراع إيراني ضد أمريكا وإن من الفطنة والذكاء أن لا نتورط فيه !!

لماذا يحاول هؤلاء المتظاهرون بالذكاء أن يجردوا المنطقة من أي سبب يدعوها لمقاومة الاحتلال والاستعمار رغم هذا الظلم كله ؟ لماذا ينكرون وجود قوى تقاتل انطلاقا من نفسها وعقيدتها وموقفها وأسبابها القوية الظاهرة ؟ أم أنها عملية إسقاط نفسي .. فهم يتكلمون وفقا لمفاهيمهم وجريا على عاداتهم؟

وأخيرا وليس آخرا نقول : إننا لسنا أقل (سُنِّيَّةً) من مفتي السنة في لبنان فضيلة الشيخ القباني ولا من زعيم الأكثرية النيابية السيد سعد الحريري . ولكننا لا ننسى أن هالة الجهاد إنما انعقدت فوق عمامة السيد حسن نصر الله الذي مرغ أنف الجيش الذي لا يقهر في تراب الجنوب المبارك . ونؤكد أن المكانة التي تسنمها هذا الرجل الشريف الذي تستهدفه المؤامرات وتتطاول عليه الألسنة مكانة ثابتة لا يمكن تشويهها . أتعرفون لماذا ؟

لأننا هنا نقع في بؤرة النظر ، ونرى أصدق وأوضح وأبعد مما يرى كثيرون . فتلك على الأقل هي الميزة التي تتوفر لمن عاش في الجبهة الأمامية .

رحيل المبدع الوفي عالي الهمة

لم أكن أتخيل قبل سنتين وأنا أتحدث مع زكي العيلة بالهاتف أن تلك المكالمة التي بادرت إليها اشتياقا له بعد فترة انقطاع سابقة ستكون آخر عهدي به . لقد انعقدت بيننا صداقة جميلة تدعو للإعزاز وللاعتزاز لا بسبب فنه الرفيع قصاصا مبدعا ممتلئ الوجدان بمأساة شعبه وحسب ، ولكن . أيضا بسبب دماثته وأدبه وطيب سريرته .

فهذا المبدع الفلسطيني النبيل الذي ينتمي لأسرة طيبة من بلدة يبنا المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وهي بلدة معروفة بطيب أهلها وعلو هممهم عموما ، ولد في مخيم جباليا عام ١٩٥٠ . وفيه عاش وها هو يموت ويدفن في ترابه ولما يبلغ التقاعد .

إن كفاحه الشخصي الذي رفعه درجة بعد درجة في مراتب العلم من حائز على دبلوم المعلمين إلى أن بلغ في الدراسات العليا مرتبة الدكتوراة دليل على علو همته وجديته ودأبه . وله فضل على أجيال من تلاميذ المدارس ثم من طلبة الجامعات الذين علمهم وقدم لهم قدوة سامية . أضف إلى ذلك أن عمره المبارك كان مثمرا على المستويات النقابية والاجتماعية فهو عضو مؤسس في اتحاد كتاب فلسطين وناشط في مجلس إدارته وفي أكثر من مجلس إدارة آخر في منتديات ثقافية . ثم هو في الوقت نفسه مبدع خصب الانتاج ترجمت قصصه إلى الانجليزية والفرنسية والروسية والعبرية . أما على الصعيد الاجتماعي فلا شك أنه كان إنسانا كبيرا محبا ومحبوبا ومحترما من قبل الكثيرين .

تدلنا إبداعات الراحل العزيز الصديق زكي العيلة في القصة القصيرة على أصالته ووفائه للبيئة وللقضية التي كانت إطار حياته ومنطلق رسالته في الحياة . فأشخاصه هم بعينهم أولئك المكافحون من أجل الرزق الحلال والوطن المنتهب . ولغته تحمل توتره وانفعاله حيال (المعركة) الدائمة التي يخوضها أبطاله والتي لم يكن ممكنا أن يعبر عنها هذا التعبير الصادق في أعماله الأدبية لولا أنه تمثلها وكابدها وشارك أبطالها بالوجدان . وعندما قرأت أعماله التي أهداني بعضها لم أستغربهم ولم أجد أني بحاجة إلى جهد كي أرافق أولئك الأبطال في حركتهم المادية أو حركة أذهانهم . إنها شخصيات فلسطينية منتزعة من البيئة بفعل الفهم العميق والحب الكبير الذي كان يعمر قلب الراحل العظيم نحو أهله وشعبه .

يحزنني أنني لم ألقه منذ زمن . ويحزنني أكثر تصوري أنه في صراعه مع المرض العضال عانى ما عاناه وأوجعه . فأضيفت إلى نضالات حياته نضالات صحته في مواجهة الداء . ودعاؤنا جميعا أن يكون له عن هذه النضالات كلها ثواب الشهداء .

فلتتذكر فلسطين دائما هذا الأديب الفلسطيني الكبير الذي حمل اسمها وقضيتها عاليا . وليعكف النقاد الذين يعمر قلبهم مثل ما عمر قلب زكي العيلة من عاطفة وطنية جياشة وتكريس وطني قوي على عشرات الأقاصيص الجميلة التي خلفها والتي هي تراث عزيز في متحف فنون الشعب اللاجئ المكافح الفدائي البطل ، لا بل في صميم حياته اليومية ومنتديات شبانه

المتطلعين إلى ثقافة وأدب يعمقان حس الانتماء والاعتزاز بشعبهم ووطنهم .
وألف رحمة على روحك الطاهرة يا أبا فادي الذي سيوحشنا غيابه كثيرا .